DOI: https://doi.org/10.22452/ris.vol11no1.8 Vol. 11 No. 1 (2024): 131-148

ONLINE JOURNAL OF RESEARCH IN ISLAMIC STUDIES
المجلة المحكمة عبر الانترنت في الدراسات الإسلامية
UNIVERSITI MALAYA
Akademi Pengajian Islam

Received: 2024-02-11 Accepted: 2024-06-24 Published: 2024-06-25

Original Article

الوباء والطاعون في الجزائر في العهد العثماني (1671- 1830م): الدايات أنموذجا

(Epidemics and plague in Algeria during the Ottoman Era [1671- 1830]: The Deys as a Model)

Ahmed Ould Beziou[a] & Faisal @ Ahmad Faisal Bin Abdul Hamid[b]

[a] Ph.D Candidate, Department, Department of Islamic History and Civilization, Academy of Islamic Studies, Universiti Malaya, Kuala Lumpur
[b] Associated Professor, Department of Islamic History and Civilization, Academy of Islamic Studies, Universiti Malaya, Kuala Lumpur, Malaysia.
*** Corresponding author, email; nagihamd1985@gmail.com**

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى ذكر الأوبئة والطواعين التي حلّت بالجزائر في فترة الدايات من العهد العثماني (1671-1830)، وآثارها السلبية، وبيان أسبابها، وكيفية انتشارها في الجزائر، ثم الوقاية منها. كما تكمن أهمية البحث في أنه يتناول موضوع مهم في تاريخ دايات الجزائر في العهد العثماني من جانبه السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وتأثير تلك الطواعين والأوبئة على الحاكم والمجتمع معاً، فغالباً ما يتزامن مع الطاعون انتشار القحط والمجاعة، وتعم الفوضى والثورات والتمردات في البلاد سواء من القبائل، وحتى من أعضاء الجيش الانكشاري على الدايات مما يوجب قتلهم واغتيالهم. وتتضح إشكالية هذه الدراسة في ثلاث نقاط رئيسية: أولا: تكمن في نقص وشحّ المصادر العربية والغربية التي تحدثت عن تاريخ تلك الأوبئة في الجزائر، وحتى تلك المصادر القليلة فإنها اهتمت بمدينة الجزائر دار السلطان وللمناطق الكبرى كالساحل الشرق والغرب، دون البوادي وللمناطق الصحراوية الجنوبية. ثانياً: هل يحق الحكومة الجزائرية في ذلك الوقت لوم وعتاب في كيفية العلاج والاحتراز من تلك الأوبئة قبل وقوعها، مع إمكانية الاحتراز منها بمنع السفن القادمة والمحملة بهذا الوباء من دخول موانئ الجزائر، أو العمل بالحجر الصحي المعمول به في البلدان الأوروبية في ذلك الزمان حفاظا على أنفسهم من انتقال العدوى. وأخيراً: هل كانت حكومة الجزائر لها الوفرة في الطب والعلاج والأدوية لهذه الأوبئة، أم كانت تكتفي لرضا بالقدر أو الأعشاب الطبية المتداولة بين السكان، وهل وفرت الغذاء والحاجيات الأساسية كالقمح والشعير وغيرهما في أزمنة الأوبئة والتي بلغ بعضها عَقْدا من الزمن، وهل حاربت ظاهرة الاحتكار التجاري التي تستغله بعض ضعاف النفوس خاصة من طائفة اليهود. واستُخْدِم في هذه

الدراسة للمنهج التاريخي لأنها تلك الأوبئة والطواعين، وأسبابها وآ ارها، كما تناول للمنهج التحليل النقدي لعلاج هذه الظاهرة والوقاية منها والاحتراز من تبعاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.
وأهم النتائج التي توصل إليها البلحث في هذه الدراسة هو محاولة جمع المادة العلمية من المصادر والمراجع القليلة سواء العربية أو الغربية التي تناولت هذا الموضوع، ومعرفة أسباب تلك الأوبئة، وآ ارها السيئة في المجتمع الجزائري على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي.
الكلمات المفتاحية: الو ء، الطاعون، الجزائر العثمانية، الدا ت، التاريخ.

ABSTRACT

This research aims to discuss the epidemics and plagues that afflicted Algeria during the period of Ottoman rule (1671-1830), their negative effects, the reasons behind them, how they spread in Algeria, and preventive measures. The significance of the study lies in addressing a crucial topic in the history of Ottoman Algeria, encompassing political, cultural, social, and economic aspects, highlighting the impact of plagues on both the rulers and society. Often coinciding with plagues are famine and unrest, leading to chaos, revolutions, and rebellions across tribes and even among the Janissary forces, necessitating their killing and assassination. The study faces three main challenges: first, the scarcity of Arabic and Western sources discussing the history of these epidemics in Algeria, with limited focus on Algiers and major regions, neglecting the hinterlands and southern desert areas. Second, questioning whether the Algerian government at the time bears responsibility for the treatment and prevention of these epidemics, exploring possibilities such as preventing infected ships from entering Algerian ports or implementing quarantine measures practiced in European countries. Finally, examining whether the Algerian government had the resources in medicine and treatment for these epidemics, or if reliance on fate, traditional herbal remedies, and the availability of essential necessities during times of epidemics was the norm. The study employs a historical methodology for the periods of epidemics and plagues, their causes, and effects. Additionally, it utilizes critical analysis to address treatment, prevention, and the political, social, and economic consequences of these phenomena. The researcher's key findings include attempting to gather scientific material from the limited Arabic and Western sources on this topic, understanding the causes of epidemics, and examining their adverse effects on Algerian society in political, social, and economic dimensions.

Keywords: Epidemics; plague; Algeria; Ottoman Era & history.

المقدمة

امتدّ العهد العثماني في الجزائر أزيد من ثلاثة قرون من سنة (1516م-1830م)، حيث مرّ نظام الحكم فيها ربعة أشكال مختلفة، ابتداءً بحكم البايلر ت (1516-1588م)، ثم الباشوات (1588-1659م)، فالآغوات (1659-1671م)، وأخيراً نظام الدا ت (1671-1830م).

وتعتبر فنزة الدا ت من أهم الفنزات التي مرت بها الجزائر العثمانية، حيث دامت مدة 159 سنة، ابتداء من سنة 1671م وانتهاء إلى سنة 1830م، وهي تعادل نصف ريخ التواجد العثماني لجزائر، عرفت فيها غالبا استقرارا سياسياً واجتماعياً واقتصاد ً، حكم في هذه المرحلة 28 دا ً وحاكماً، كان أولهم الداي الحاج محمد النزيكي، وآخرهم الداي حسين رحم الجميع.

فاستقرت معالم الدولة الجزائرية المستقلة في هذا العهد عن الدولة العثمانية اسماً وشكلاً ومضمو ً في السلم والحرب،

داخلياً وخارجياً، فنظامها السياسي نظام إسلامي اختياري دستوري، مبني على الشورى والانتخاب، لها ميزانية مستقلة، وعملة خاصة بها، وعَلَمٌ متميز بها، وجيش قوي بريٌ وبحريٌ.

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ أبو القاسم سعد رحمه : "امتازت الجزائر نها لم تكن محكومة سرة معينة، بل بنظام برلماني، كان يحتوي على بذور صالحة للديمقراطية، فالدا ت في الجزائر كانوا يتولون الحكم بطريقة الانتخاب لا الوارثة، على عكس مصر وتونس وطرابلس ليبيا"[1].

وأما موضوع دراستنا وبحثنا وهو حول الأوبئة والطواعين في عهد الدا ت في الجزائر، ريخه، وأسبابه، وعلاجه، وآ ره السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الحاكم وحكومته وشعبه، وكيفية الاستفادة من ذلك في زماننا الحاضر.

وقبل البحث بهذه الدراسة التاريخية يستحسن بنا ذكر بعض التعاريف المهمة منها: كلمة "الو ء"، وتعريفه في اللغة: هو كل مرض عام، تقول: قد وبِئَت الأرض تو و ءة فهي وبئة وأوبئة ووبيئة وموبئة وموبوءة إذ كثر مرضها[2].

وفي اصطلاح الأطباء: اختلف في تعريفه الأطباء وأهل الاختصاص، فقال ابن زهر: هو المرض الذي يصيب أكثر أهل البلد، وأنهم يشتركون في استنشاق الهواء الفاسد. وعرفه ابن خاتمة الأندلسي: هو مرض عام للناس قتّال غالبا عن سبب مشترك. كما نجد ابن الخطيب يصرح نه هو مرض حاد حار السبب سميّ المادة يتصل لروح بدءً بواسطة الهواء[3].

فمن مجموع تعاريف العلماء والأطباء أن الو ء هو مرض عام بكتيري حاد تج عن سبب رئيسي مشترك وهو فساد الهواء، يصيب الإنسان والحيوان معاً، وتكون سريعة الانتشار والعدوى من الشخص المصاب إلى الشخص السليم ينتقل عن طريق الهواء واللعاب، وحتى للباس والقماش.

والصحيح أنه على فرق بين مصطلح الو ء والطاعون، في حين كان مفهوم الو ء في الاصطلاح العلمي أشمل وأعم من مرض الطاعون، فكل طاعون و ء ولا عكس حينئذ[4].

وأنواع الو ء ثلاثة حسب ما أقره الأطباء: الطاعون العقدي: وهو عبارة عن خرجات ثة تظهر في بواطن الإبط والأفخاذ. والطاعون الدموي: وهي قروح تظهر في الجلد مصاحبة مع ارتفاع درجة حرارة الجسم. والطاعون الرئوي وهو أشده وأخطره يصيب الرئة، وهو شئ عن فساد الهواء كما نص عليه ابن سينا، ويؤكده ابن خلدون في مقدمته فيقول: "إذا فسد الهواء وقع المرض في الرئة وهو أشد وأخطر أنواع الطواعين فتكاً لناس على الإطلاق لا يكاد يسلم منه أحد، ولا علاج له في الغالب"[5].

وله أسباب أخرى ذكرها أهل العلم والأطباء منها طبيعية ومناخية: كالحرارة الزائدة، وز دة الرطوبة، وكثرة التعفن، والهواء المتصاعد من الآ ر التي يموت فيها الحيوا ت، وكثرة جثث الإنسان في أ م الحروب والفتن[6].

بينما يختصر ابن زهر أسباب الأوبئة في ثلاث نقاط رئيسية: فساد الهواء، وفساد الماء، وفساد الغذاء[7].

---

(1) أبو القاسم سعد ، أبحاث وآراء في ريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، سنة 2007، (65/1).

(2) ينظر: الصحاح للجوهري 79/1، ولسان العرب لابن منظور 189/1.

(3) ينظر: كتاب الأغذية لابن زهر (ص 143)، تحصيل غرض القاصد لابن خاتمة (ص 162)، مقنعة السائل عن المرض الهائل لابن الخطيب (ص 38).

(4) ينظر: المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، مزدور سمية، (ص 22).

(5) ينظر: مقدمة ابن خلدون (ص 473).

(6) ينظر: تحصيل غرض القاصد، ابن خاتمة (ص 166)، التيسير في المداواة، ابن زهر (ص 450).

(7) ينظر: التيسير في المداواة، ابن زهر (ص 450).

والو ء المشهور الذي مرّ لعالم أسره في سنة 2019م، والمسمى بو ءكورو كوفيد 19، والذي يصيب الرئة، فقد وقع نحوه سنة 749هـ/1348م، والذي سمي بطاعون الجارف، و لطاعون الأعظم، و لطاعون الأسود، وعاصره المؤرخ ابن خلدون رحمه ، وهلك فيه عائلته وجميع شيوخه يصفه قائلا: "إلى أن جاء الطاعون الجارف وذهب لأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما "[8]. وقال فيه أيضا: "تحيّف الأمم وذهب هل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها"[9].

وكان أصل هذا الو ء ومبدأ انتشاره من بلاد الخِطا، وهي ضمن حدود الصين اليوم، ثم عمّ جميع بلاد العالم كلها، حسب ما ذكره مفصلا المقريزي رحمه [10].

وقد رتبت هذا البحث على مقدمة، وأحداث متسلسلة عبر السنوات الأحدث فالأحدث، ثم ذكرت أسباب الو ء، وعلاجه، وآ ره على الحكومة والأشخاص، وختمت المبحث بخاتمة وثبتا للمصادر والمراجع.

ـفأقول –و لله التوفيق–: لا تخلو فترة من فترات التاريخ الجزائري في العهد العثماني من وقوع الو ء وانتشاره في ربوع البلاد غربيها وشرقيها وحتى جنوبيها، مع أن انتشاره غالباً يكون في المناطق الشمالية و لخصوص من ميناء الجزائر أو ميناء عنابة شرق البلاد حيث ترد السفن العربية والأجنبية الجالبة للو ء من خارج البلاد.

ويضيف الدكتور أرزقي شويتام أن أكثر ما كان يصيب الو ء في الجزائر خلال العهد العثماني الجنود الانكشارية لتواجدهم الكثير في الثكنات العسكرية، وأنه كان سببا وعاملا لتدهور الجيش[11].

فكان أول ظهور للطاعون في الجزائر في العهد العثماني سنة 1552م، وأخطره الواقع في سنة 1817م، حيث بلغ ضحا ه 20 ألف شخص.

فأول و ء في عهد الدا ت ظهر في فترة الداي الحاج محمد (1082-1093هـ/ 1671-1682م)، وهو أول الدا ت، فقد تعرضت الجزائر لو ء استمر لمدة سنة كاملة، وذلك ابتداءً من سنة 1672م[12].

وفي عهد الداي حسن شاوش (1093-1095هـ/ 1682-1683م) انتشر الو ء في الجزائر، وأعقبه مباشرة قحط شديد، فارتفعت الأسعار ثلاثة أضعاف، وذلك في بداية سنة 1683م[13].

وأما بداية حكم الداي الحاج أحمد الأعجي (1106-1109هـ/ 1695-1698م) فقد عرف انتشر الو ء في الجزائر، وقتل أكثر من 20 ألف شخص، واستمر لمدة أربع سنوات، مات منه معظم الأسرى المسيحيين[14].

وعندما استلم الحكمَ الدايُ محمد بن حسن أفندي (1130-1136هـ/ 1718-1724م) كانت حالة الجزائر سيئة للغاية، وذلك بسبب ما أحدثته الزلازل سنة 1717م والذي استمر لمدة تسعة أشهر، فيحدثنا عنه الطبيب الرحالة الفرنسي جون أندري بيسو ل –والذي زار الجزائر سنة 1725م– قائلاً: "تعرضت هذه المدينة —مدينة الجزائر– إلى هزات

(8) ينظر: التعريف بن خلدون (ص 64-65).

(9) ينظر: مقدمة ابن خلدون (ص 38).

(10) ينظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمة، بيروت، 81/4-82.

(11) ينظر: دراسات وو ئق في ريخ الجزائر العسكري والسياسي، أرزقي شويتام، (ص38).

(12) انظر: النز، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ... (ص 415).

(13) انظر: النز، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ... (ص 423).

(14) ينظر: المصدر السابق ... (ص 451).

زلزالية عنيفة سنة 1717م حيث غادرها كل سكانها عدا الداي وأعضاء مجلس الديوان حيث امتلأت الأر ف المجاورة للمدينة لخيام التي نصبها السكان طوال التسعة أشهر التي استغرقها الزلزال"[15].

وقد تلى هذا الزلزال المدمر قحطٌ شديد استمر لسنوات، تلفت فيه المحاصيل، وانتشرت بسببه المجاعة والو ء في جميع المناطق، وتزامن ذلك ظهور الجراد، فمات عدد كبير من الأهالي والأسرى المتواجدين في الجزائر، واضطر سكان القبائل بنهب وسلب السهول، فاضطر الداي محمد لاتخاذ إجراءات قاسية وصارمة بغية إعادة الهدوء للمدينة وضواحيها[16].

فاغتنم يهود الجزائر ضعف الحالة المادية للبلاد في التقرب من الداي محمد بن حسن لحاجته للنقود، وهكذا أغرقه اليهود لمال، واحتلوا لديه مكانة خاصة، وكان آنذاك رئيس الجمعية اليهودية يودا كوهين[17].

قامت بعض القبائل بسهل متيجة لتمرد لمدة ثلاث سنوات، تمكن قائد متيجة من القضاء على التمرد، وطردهم إلى الطرف الآخر من نهر يسر[18].

ويزيد وضوحاً حول أسباب انتشار هذا الطاعون في الجزائر ما ذكره الدبلوماسي الفرنسي لوجي دو طاسي –الذي شغل منصب كاتب سر القنصلية الفرنسية لجزائر خلال سنتي 1717-1718م- فيقول: "لطالما اكتووا في مملكة الجزائر على عدم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب الطاعون أو لمنع انتشاره، حيث لديهم اعتقاد أنه من يفعل ذلك فإنه يعارض أحكام الأبدية، وعقيدة القدر المطلق، حيث أنني رأيت في عام 1718م وصول سفينة انجليزية محملة من الاسكندرية، حيث كان الطاعون بها عنيفاً .. وعلى الرغم من التأكيدات التي تم إبلاغها للداي بواسطة القناصل والطاقم تم شحن الحرير والقطن في نفس اليوم من وصوله دون وقوع أي حادث".

ثم يذكر هذا الدبلوماسي مستغر ً تغير الموقف الجزائري من الطاعون بعد سنتين والذي كان حازماً فيقول: "ومع ذلك أن الطاعون الذي دمّر البروفانس –منطقة في جنوب فرنسا- نشر رعبه في كل مكان، ونسوا الأقدار في مدينة الجزائر لدرجة أن محمد داي لم يعيد السفن فقط التي جاءت من مرسيليا، لكنه رفض السماح بتلقي الرسائل التي كانت على متن هذه السفن"[19].

وفي أثناء عهد الداي إبراهيم بن رمضان الخز جي (1145-1158هـ/ 1732-1745م) تذكر المصادر أن سنة 1737م عرفت بعام الطاعون لأنه انتشر عبر الحواضر والبوادي حتى أن القنصل الفرنسي لجزائر فالبير راسل المصلحة الصحية بمرسيليا لعبارات التالية: "يعود من جديد الطاعون محد خسائر كبيرة في كل الإ لة، يحتمل أن يكون العدوى قد تسرب من إسبانيا"[20].

وقد توفي جراء هذا الطاعون العديد من السكان ولم يسلم منه حتى ي وهران يوسف بوشلاغم.

ثم تكرر الو ء سنتي 1738 وفي جوان 1740م ويعود مصدره إلى سفينة فرنسية قلة للعدوى كانت قادمة من ميناء الاسكندرية بمصر، وكان بحرها أثناء إقامتهم بها قد تعرضوا لمرض الطاعون، فمات معظمهم في الطريق، إلا أن هذه السفينة وضعت تحت الرقابة الصحية، وأجبرت على تطبيق الحجر الصحي على كل الطاقم وعلى البضائع أيضا، إلا أن

(15) ينظر: جون أندري بيسو ل، رحلة إلى إ لة الجزائر، ترجمة: لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم، الجزائر، سنة 2023م، (ص 186).
(16) ينظر: المصدر السابق... (ص 468، 471).
(17) ينظر: المصدر السابق... (ص 469).
(18) ينظر: المصدر السابق... (ص 471).
(19) ينظر: لوجي دو طاسي، ريخ مملكة الجزائر، ترجمة: لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم، الجزائر، سنة 2023م، (ص 101).
(20) Le Maghreb avant la prise d'alger 1790-1830. L. Valensi, P 21.

الداي إبراهيم حال دون اتخاذ إجراءات وقائية صارمة، إذ أمر نزال البضائع –وكان فيها الو ء– وتسويقها، فتسبب ذلك في إحداث وانتشار الو ء كانت ضحيته الأولى الشخص الذي فتح حزمة البضائع، ثم قضى على (1000) ألف شخص خلال الأسبوع الأول فقط، واستمر لمدة ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى تونس و شر الفتك بها[21].

ثم عاود الظهور والانتشار بعد سنة فقط أي سنة 1741م في غرب البلاد، خاصة مستغانم وضواحيها، ثم خمد الو ء تدريجيا إلا أن عاد مجددا في مدينة الجزائر وقسنطينة في أفريل سنة 1742م مخلفا خسائر معتبرة قدرت ما بين 25 و 30 ضحية يومياً[22].

ويظهر أن هذا الو ء قد طال مكثه في الجزائر، فنجد أن ابن حمادوش الجزائري ذكره في رحلته المؤرخة في محرم 1156هـ الموافق شهر فبراير 1743م[23].

ولما حاصر الداي إبراهيم كوشوك (1158-1161هـ/ 1745-1748م) مدينة تونس في أفريل 1746م، ظهر الو ء في الجزائر، ففك الحصار، ورجع إلى الجزائر مباشرة، وذلك في نهاية ديسمبر 1746م إلا أنه لم يحدث خسائر بشرية هامة استنادا إلى مراسلات القنصل الفرنسي لجزائر في ذلك الزمان[24].

وكان عهد الداي محمد بن بكير (1161-1167هـ/ 1748-1754م) عهد أمن ورخاء وهو أول من أصدر وثيقة عهد الأمان لجزائر، وذلك في 03 فيفري 1748م (القانون أو الدستور)، والتي تضمن تحقيق السلم والأمان السياسي والاجتماعي داخل الحكم الجزائري والإدارة الجزائرية، ومراعاة الوطن على الأغراض الشخصية، ومعاقبة كل من يريد زعزعة الأمن والاستقرار في الجزائر سواء من الانكشارية أو الر س أو الموظفين الإداريين وغيرهم، حتى قال توما Toma القنصل الفرنسي لجزائر في ذلك الوقت: "لا توجد مدينة في أور تتحلى لنظام والانضباط مثلما تتحلى به مدينة الجزائر"[25].

ففي فنزة هذا الداي تسرب إلى الجزائر الو ء عن طريق سفن الحجاج والقوافل التجارية القادمة من الشرق، فحلّ لبلاد سنة 1752م، وكان أكثر انتشاره في منطقة قسنطينة وجيجل والقل، واستمر لمدة أربع سنوات متتالية، فكان يموت في كل شهر ما يقرب من ألف شخص.

وقد أشار إلى هذا الو ء الطبيب جان مارشيكا –وكان شاهد عيان حيث وصف هذا الطاعون– وأنه بلغ عدد ضحا ه أكثر من 1700 ضحية[26].

وقد تزامن مع الطاعون انتشار القحط، وعمت الفوضى، وحدثت عدة ثورات، واستخدم الداي القوة للحد منها، وتمكن من إخمادها[27].

ثم استمرت ضر ت الطاعون في عهد الداي علي بوصبع طوال سنوات 1756م إلى 1758م بشرق البلاد، ثم

(21) ينظر: فلة القشاعي، الصحة والسكان أثناء العهد العثماني، (ص 73).

(22) ينظر: ريخ الطب في الجزائر في أواخر العهد العثماني (ص 15).

(23) ينظر: رحلة ابن حمادوش الجزائري، تحقيق: أبو القاسم سعد (ص 30).

(24) ينظر: النز، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية (ص 508-509).

(25) ينظر: رسائل القنصل الفرنسي توما، مخزن الأوراق لغرفة التجارية في مرسيليا. بواسطة (الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية) (ص 510).

(26) La Peste en Afrique Septentrionale .Jean Marchika. P 97.

(27) ينظر: النز، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا (ص 514).

يعود من جديد سنة 1762م مصحو بزلزال عنيف دمر قنوات المياه أعقبه مجاعة هائلة لسكان[28].

وأما عهد الداي محمد بن عثمان شا المجاهد الشجاع (1179-1205هـ/ 1766م- 1791م) فقد ظهر الو ء أولا سنة 1771م، ثم تلاه سنة 1785م في منطقة قسنطينة والقالة وعنابة شرقاً، ووصل إلى وهران ومعسكر غر .

ثم عاد بعد سنتين سنة 1787م وتفشى بمدينة الجزائر وسمي لو ء الكبير، مات منهم خلق كبير قيل جاوز 17 ألف ضحية وصل في بعض الأ م إلى 500 ضحية يومياً، وقيل: مات فيه نصف سكان مدينة الجزائر وثلث سكان عنابة، ثم زال في جويلية من نفس السنة، وانتقل إلى وهران غرب البلاد، فغدت البلاد خالية من الرجال حتى أن معظم المحاصيل بقيت دون أن تُجنى، واستمر لمدة عشر سنوات[29].

يقول الحاج أحمد الزهار نقيب الأشراف في مذكراته: (وفي سنة 1201هـ/1787هـ جاء الو ء للجزائر حتى وصل عدد الأموات أحيا خمسمائة جنازة كل يوم، ويسمى الو ء الكبير، وطال الو ء لجزائر إلى سنة 1211هـ/1796م)[30].

وذكره أيضا جون ميشال فونتير دو رادي المبعوث الفرنسي إلى الجزائر سنة 1788م أنه كان بتاريخ 16 نوفمبر 1788م طاعون قضى على العديد من البحارة، ما يقرب من ستين رايسا من البحرية الجزائرية، وأكثر من سبعمئة عبد مسيحي في مدينة الجزائر فقط[31].

وفي مارس سنة 1789م ضرب الو ء غرب الجزائر بسبب سفينة إسبانية لم تخضع للحجر الصحي[32].

وجاء في بعض المصادر التاريخية تفسير وتوضيح لهذا الو ء وهو و ء الجدري وأنه استمر إلى سنة 1804م وانتشر بسرعة كبيرة محد هلعا وسط السكان بحيث أودى بحياة عدد كبير، مما اضطر لإدخال التلقيح إلى الجزائر ولأول مرة من طرف الطبيب الفرنسي مارتينا نغو الذي كان مقيما لجزائر، ثم حذا حذوه أطباء آخرون كالطبيب أودراس وأسنتي اللذين أقاما في الجزائر مدة طويلة إلى أن وافتهم المنية[33].

وفي هذه الفترة ألّف العالم الجزائري محمد بن رجب كتابه المشهور: (الدر المصون في تدبير الو ء والطاعون)[34].

ولم يصل هذا الو ء شرق الجزائر، لأن ي قسنطينة صالح ي فرض حزاما صحياً حول عنابة وضواحيها لمنع انتقال وتسرب العدوى، كما فرض نظام الحجر الصحي على جميع المقاطعة[35].

---

(28) ينظر: الصحة والسكان أثناء العهد العثماني، فلة موساوي القشاعي (ص 77).

(29) ينظر: الزهار، الحاج أحمد الشريف، مذكرات نقيب الأشراف، (ص 51). ستيفن، جيمي ولسن، الأسرى الأمريكان في الجزائر... (ص 228). النز، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا (ص 547).

(30) ينظر: الزهار، الحاج أحمد الشريف، مذكرات نقيب الأشراف، (ص 51).

(31) ينظر: جون ميشال فونتير دو رادي، الجزائر خلال القرن الثامن عشر، ترجمة: لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم، الجزائر، سنة 2023م، (ص 61، 67، 74).

(32) ينظر: يمينة مجاهد، ريخ الطب في الجزائر، (ص 22).

(33) ينظر: يمينة مجاهد، ريخ الطب في الجزائر، (ص 59).

(34) ينظر: ريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد 423/2. معجم أعلام الجزائر عادل نويهض (ص 108-109). يقول عن الكتاب أبو القاسم سعد : (ولا ندري الآن حجم هذه الرسالة، ولكن يبدو أنها مهمة. فقد طالع صاحبها كتبا عديدة في الطب مثل قانون ابن سينا وتذكرة الإنطاكي ومفردات ابن البيطار حول الو ء والطاعون، وقد رآها صاحب (تعريف الخلف) فوجد أن محمود بن علي بن الأمين قد أضاف إليها مقدمة من سبعة فصول وخاتمة).

(35) ينظر: الزهار، الحاج أحمد الشريف، مذكرات نقيب الأشراف، (ص 51). ستيفن، جيمي ولسن، الأسرى الأمريكان في الجزائر... (ص 228). النز، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا (ص 547). مجاهد يمينة، ريخ الطب في الجزائر، (ص 22)

ثم تلاه عهد الداي حسن بن حسين الخز جي (1205-1212هـ/1791-1798م) فأصاب الو ء مدينة الجزائر أواخر سنة 1792م نقله إليها بحارة قدموا من القسطنطينية، والذين أفلتوا من رقابة الحجر الصحي، ثم انتشر إلى الأر ف ووصل إلى شرق البلاد، فكان يقتل يوميا ما بين الخمسين إلى المائة، واستمر هذا الو ء إلى سنة 1794م، وقد قامت السلطات المحلية لتحرك وبذل مجهودات من أجل التصدي لهذا الو ء فأغلقت الموانئ ومنعت القادمين إليها من الدخول وعدم الاتصال لبواخر المجهولة[36].

وفي عهد الداي مصطفى شا (1212-1220هـ/1798-1805م) ظهر الو ء سنة 1799م وكان في أول أمره يحصد العديد من الأرواح، أحصاها بعض المؤرخين قرابة 100 شخص يومياً، وعلى إثره ارتفع سعر الصاع القمح إلى حوالي 28 فرنكا، وامتد ست سنوات كاملة[37].

ويرجع ارتفاع سعر القمح يومئذ إلى احتكار التجار اليهود – بوشناق – لمادة القمح والحبوب وغيرها – فأخرج الداي مصطفى شا الكميات المخزن في يلك الشرق (قسنطينة)، وطرحها في أسواق الجزائر العاصمة، والبليدة، والقليعة. فانخفضت الأسعار، وتمكن الناس من الحصول على حاجاتهم من الحبوب سعار معقولة.

وفي سنة 1804م قدم الطاعون على متن سفينة من الشرق، ابتدأ ظهوره بمدينة قسنطينة وقيل: عنابة، ثم عمّ جميع مناطق البلاد، اتفق كل من الطبيب جان مارشيكا وغويون وبو ك على أن هذا الو ء قدم من الشرق، إلا أنهم اختلفوا في تحديد المنطقة التي جاء منها، فيرى مارشيكا أنها قادمة من سمير لدولة العثمانية، ويقول غويون أنها من اليو ن على متنها حجاج، بينما يذهب بو ك أنها قادمة من البلقان، ومكث هذا الو ء في الجزائر أربع سنوات، وحصد العديد من الأرواح، وقد تزامن مع غزو الجراد والمجاعة[38].

وفي عهد الداي حاجي علي الشريف (1224-1230هـ/1809-1815م) اجتاح الجراد على الجزائر، وأتلف المحاصيل والثمار، مما أدى إلى وقوع الغلاء في الحبوب والثمار، فأعطى الداي حاجي علي شا القمح لجميع الخبازين، وجعل له سعراً على سعر أ م الرخاء، إلى أن زال الجراد، وأخصبت الأرض، ورخصت الأسعار، وذلك في سنة 1814م.

والذي نشاهده في عهد الداي عمر بن محمد شا (1230-1232هـ/ 1815-1817م) أن فترة حكمه مليئة لحروب والاضطرا ت الداخلية والأوبئة والطواعين، حتى لُقِّب لداي المنحوس، فقد تعرض الأسطول الجزائري لهزيمتين: الأولى: أمام الأسطول الأمريكي في سنة 1815م، و نيا أمام الأسطول المشترك بين هولندا وبريطانيا (حملة اللورد أكسموث) سنة 1817م.

وتزامن مع انتشار الو ء في كافة بلدان البحر المتوسط وشمال إفريقيا من مصر شرقا إلى مراكش غر ً ابتداءً من سنة 1816م، وكان سبب ظهور هذا الو ء الفتاك بقدوم سفينة تركية محملة لحجاج من ميناء الاسكندرية –وكانت يومئذ أرض و ء، ثم زادت حدته في صيف سنة 1817م، فكانت حصيلته قاتلة، وبقيت ذكراه عند الناس خالدة، مات منه المسلم والنصراني واليهودي، وشمل الغني والفقير، قيل: مات منه قرابة 14 ألف شخص، فتسبب إثر ذلك في قيام حالة تمرد وعصيان عمت مختلف مدن الجزائر، فاتفق الانكشارية على قتل الداي عمر، فهاجموا قصره، وألقوا القبض عليه، وأعدموه

. حمودي هدى ومصباحي حيزية، الأمراض والأوبئة في الجزائر، (ص 37).

(36) ينظر: الأمراض والأوبئة في الجزائر في أواخر العهد العثماني، حمودي هدى ومصباحي حيزية، (ص 38). الأوبئة والمجاعات في الجزائر، مصطفى خياطي، ترجمة: حضرية يوسفي (ص 55).

(37) ينظر: المصدر السابق.

(38) ينظر: مصطفى خياطي، الأوبئة والمجاعات في الجزائر، ترجمة: حضرية يوسفي (ص 58).

شنقاً، وذلك في شهر شوال 1232هـ الموافقـ 8 أكتوبر سنة 1817م[39].

ويؤيد هذا الطرح المؤرخ الجزائري الكبير المبارك الميلي فيصرح أن سبب اغتياله هو تشاءم العسكر لداي عمر ونحسه، فقد ظهر الو ء، واستشهد الرايس حميدو، والاعتداء على مدينة الجزائر من أمريكا وبريطانيا، فقرروا التخلص منه لذلك[40].

ثم استمر ذلك الو ء الكبير -كما تقدم- في عهد الداي علي بن أحمد خوجة (1232-1233هـ/ 1817-1818م) فدام سبع سنوات كاملة إلى سنة 1824م، أدى إلى وفاة كثير من الجزائريين، كان على رأسهم الداي علي خوجة نفسه، كما أنه أصاب العديد من الحيوا ت كالماشية والخيول[41].

قال الز ي في دليل الحيران: "ثم تولى علي خوجة شا سنة 1232هـ، ومات لو ء الذي حدث قبله، وبقي لتوليته"[42].

ويذكر القنصل الأمريكي لجزائر وليام شالر أنه بعد انتشار الطاعون في الجزائر قصد الداي علي خوجة، وأعلمه ن إجراءات التفتيشية لهذه السفن في عرض البحر المتوسط لمعرفة السفن الصديقة والسفن العدو، يزيد من احتمال انتشار الطاعون، وأشار عليه بعدم ز رة حراسه للسفن الأمريكية في عرض البحر، وأن النتائج التي تترتب على فرض الحجر الصحي على تلك السفن هظة التكاليف، مما يؤدي عاجلا إلى عداوة الدول للجزائر، فرفض الداي علي خوجة استثناء سفن الولا ت المتحدة الأمريكية من تلك الإجراءات[43].

وختاما عهد الداي حسين صاندقلي 1233-1245هـ/ 1818-1830م) آخر الدا ت، فتعتبر نصف فنزة حكمه الأولى فنزة و ء، وهو امتداد للطاعون السابق الذي ظهر في سنة 1818م، إلى أن ارتفع الو ء واختفى نهائياً سنة 1824م[44].

من خلال هاته الوقائع التاريخية في العهد الجزائر العثمانية نستفيد عدة أمور تتعلق لو ء في فنزة الدا ت لجزائر من الجانب التاريخي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، سواء من طرف الراعي (الحاكم) أو من طرف الرعية (الشعب)، وذلك في تسع نقاط مهمة:

أولا: قد ذكر كثير من المؤرخين الجزائريين والغربيين أن الجزائر كانت خالية من الأمراض المعدية والو ئية، وإنما كانت الأمراض والأوبئة تصل إليها من الخارج، ولا يخلو من خمسة أشياء:

1- الحجاج القادمون من المشرق -و لخصوص من ميناء الاسكندرية- كو ء سنة 1816م والذي دام أكثر من أربع سنوات، وصل إلى غاية مدينتي عنابة وقسنطينة شرق البلاد، وجعل سكان بجاية وجيجل يفرون إلى الجبال والأماكن العالية.

2- التجار الأوربيون كالو ء القادم من إسبانيا سنة 1803م، والذي ذهب ضحيته قرابة 3000 شخص.

3- الفرق العسكرية الانكشارية من تركيا والدولة العثمانية المنضمون للجيش الجزائري، كو ء سنة 1793م والذي

---

(39) ينظر: الزهار، الحاج أحمد الشريف الزهار، مذكرات نقيب الأشراف، .. (ص 127). النز، عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، (ص 612).

(40) ينظر: الميلي، مبارك بن محمد الميلي الهلالي، ريخ الجزائر في القديم والحديث .. 264/3.

(41) ينظر: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار (ص).

(42) ينظر: الز ي، محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران... (ص 247).

(43) ينظر: وليام شالر، مذكرات قنصل أمريكا وليام شالر .. (ص 176-177).

(44) ينظر: الأمراض والأوبئة في الجزائر في أواخر العهد العثماني ... (ص 39).

أصاب الجزائر العاصمة، ثم مدينتي البليدة وقسنطينة.

4- القوافل التجارية والبضائع والسلع خاصة من ميناء الاسكندرية بمصر –والذي يعتبر من هم المراكز التي كانت تصدر الو ء لكونها همزة وصل بين الموانئ العثمانية والمغاربية والأوربية وحتى الأسيوية.

5- انتقال الو ء لمراسلات الإدارية والسياسية والدبلوماسية الأوربية[45].

يؤكد ذلك ما قاله نقيب الأشراف الحاج أحمد الزهار: (وكان الو ء يتسرب إلى الجزائر في غالب الأحيان عن طريق البحر، لذا نجد أول من كان يصاب به هم عمال الموانئ، وبعد ذلك ينتشر في بقية أنحاء البلاد)[46].

وأشار إلى ذلك بوضوح الرحالة والجاسوس الفرنسي بو ن في تقريره عن الجزائر أن الطاعون لم يكن تجا عن البيئة الجزائرية، فقد كان تي دائما من المشرق[47].

فنفهم حينئذ أنه في حالة إغلاق المنفذ البحري فلا مدخل للو ء غالباً، وهذا ما استشهد به المؤرخ الجزائري حمدان بن عثمان خوجة أن منذ تطبيق فرنسا للحصار البحري على الجزائر سنة 1827م إلى وقت ليفه لكتابه "إتحاف المنصفين والأد ء بمباحث الاحتراز عن الو ء"، والذي ألفه سنة 1836م لم يظهر أثر الو ء لجزائر لإحداث الفرنسيين للكرنتينة والحجر الصحي على جميع السفن والأشخاص القادمين من الشرق أو الغرب.

بينما يخالف هذه النظرية المؤرخ الفرنسي فر ن بروديل فيؤكد أن مناخ البحر المتوسط يمتاز بكثرة وقوع الأوبئة والأمراض نظراً لحرارتها ورطوبتها الزائدتين، فهي تتأثر لأبخرة بخلاف قي المدن البعيدة عن الساحل[48].

لكن يحتاج رأي بروديل إلى دليل لما قالها، وإلا فبحسب ما نذكره أن جل الأوبئة التي وقعت لجزائر إنما هي قادمة ومتسربة من بلد آخر، وليس حالة ومبتدأة في الجزائر.

نيا- يرى الرحالة الحسن بن محمد الوزان الفاسي المشهور بـ (ليون الإفريقي) ن الو ء يظهر في بلاد البربر –ومنها الجزائر- على رأس كل عشر سنوات أو خمسة عشرة سنة أو خمسة وعشرين سنة[49].

و لنظر إلى تواريخ الأوبئة التي سجلت المصادر حدوثها لجزائر في فنزة الدا ت يسمح لنا بيد كلام الرحالة الحسن الوزان وأنها دورية، بل أحيا تكون أقل من عشر سنوات، وهذه سجل التواريخ من أولها إلى آخرها: (1672م- 1683- 1696- 1720- 1737- 1738- 1740- 1746- 1752- 1756- 1762- 1771- 1785- 1787م- 1789- 1792- 1799- 1804- 1816- 1817 واستمر إلى سنة 1824م).

لثا- حسب سجلات تواريخ الأوبئة في فنزة الدا ت من العهد العثماني لجزائر كان تطول مدتها أحيا لسنوات عدة كما في طاعون سنة 1784م إلى سنة 1798م حيث دام أربع عشر سنة، وكو ء سنة 1816م والذي انتهى سنة 1824م فدام ثمان سنوات، وربما يقتصر مكث الو ء على عدة أ م أو شهور لا يتجاوز السنة، وهو غالب الأوبئة التي ظهرت في الجزائر.

وكان الو ء أحيا يعم جميع مناطق البلاد، وأمرة أخرى لا يتعدى إلا المناطق الشمالية فقط، فنذكر في هذه الدراسة

(45) ينظر: مجاهد يمينة، ريخ الطب في الجزائر، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة وهران، الجزائر، 2018م (ص 17).

(46) ينظر: مذكرات نقيب الأشراف الحاج أحمد الزهار، (ص 78).

(47) ينظر: الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، بوحجرة عثمان (ص 54).

(48) ينظر: المتوسط والعالم المتوسطي، فر ن بروديل، ترجمة: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، بيروت، سنة 1991م، ط1، (ص 67).

(49) ينظر: وصف إفريقيا 85/1.

حالات الو ء في الجزائر عبر التسلسل الزمني مع ذكر اسم الداي، وفترة ولايته، وأبرز ما أحدثه الو ء في البلاد، ومصدر الو ء، وكيف عولج من طرف الراعي والرعية، وآ ره الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

رابعا- جهود الدا ت في الجانب الاقتصادي والاجتماعي في التصدي للو ء كالاستفادة من خزائن الدولة، وإخراجها للسوق مباشرة، وتوفيرها للشعب أ م الأوبئة والمجاعات، وتتمثل فيا يلي:

1- توزيع القمح والحبوب للخبازين مباشرة، وتكليفهم بز دة الانتاج لكفاية المواطنين، كما حدث في عهد الداي حاجي علي سنة 1814م، فأعطى القمح لجميع الخبازين، وجعل له سعراً على سعر أ م الرخاء، إلى أن زال الجراد، وأخصبت الأرض، ورخصت الأسعار في نفس السنة.

أو يكون بتوزيع الحبوب والمحاصيل في حالات الأوبئة بسعر معقول، فلا يجمع للناس بين الو ء وارتفاع سعر المحاصيل.

2- عقوبة التجار المحتكرين، وكسر احتكارهم للسوق، كما حدث في عهد الداي مصطفى شا في و ء سنة 1799م وغيره .

3- بيان خطورة وجشع التجار أ م الأزمات والأوبئة ورفع الأسعار وتخزين المواد الغذائية الأساسية كالقمح والشعير، وهذا ما كان يفعله تجار اليهود في الجزائر، وخاصة منهم التاجر بوشناق.

4- وجوب اهتمام الحاكم بحال الرعية، وكفايتهم في أ م الأزمات، ذكر حمدان خوجة أن في زمن الطاعون كان لإدارة بيت المال نشاط يفوق جميع الإدارات الأخرى، فهي التي تقوم حصاء الموتى، وتتولى النزكات المهملة وتقوم بعمليات الميراث، إلا أن الجانب الصحي كان مهملا من طرف الدا ت فلم يبنوا المستشفيات والمراكز الصحية، ولم تكن في الجزائر إلا صيدلية واحدة[50].

ولهذا نجد وصية السلاطين والملوك لأبنائهم وأعضاء حكوماتهم لرفق لرعية أ م المحن والأوبئة والمجاعات، فهذا السلطان أبو حمو موسى الز ني[51] يوصي ابنه ولي عهده فيقول: (إن كان زمن القحط ومحل ومجاعة واقعة فنزفق بهم في المخازن والمجابي، وتحسن لضعفائهم المحاجين وتحابي، وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرخاء من فوائدهم، فتعمر أسواقهم بما اختزنته من الطعام مما يقام به أود الناس في ذلك الزمان، فإذا كنت بني عاملا على هذا الأسلوب جبلت على محبتك كل القلوب، ودعت لك الرعية ببقاء الدولة والتمهيد والنصر والتأييد، وفي ذلك الصلاح التام لدولتك والخير العام لرعيتك)[52].

خامساً- الالتزام لحجر الصحي كان معروفا ومعمولا به في بعض فترة الدا ت، كما في سنوات 1740م و1787م و 1792م، وقد تقدم أن القنصل الأمريكي وليام شالر أشار على الداي علي خوجة بذلك في و ء سنة

(50) ينظر: حمدان خوجة، إتحاف المنصفين ... (ص 136).

(51) هو موسى بن أبي يعقوب، أبو حمّو الز ني من سلاطين الدولة الز نية بتلمسان وضواحيها، ولد سنة 723 ه في غر طة، وتلقى تعليمه الأول بها، ثم ارتحل إلى تلمسان صحبة والده بدعوة من حاكمها أبي شفين الأول، وواصل تحصيل العلم فيها وعندما بلغ الرابعة عشر من عمره استولى المرينيون على تلمسان، فاضطر إلى الخروج مع أهله فارتحلوا إلى تونس الحفصية، ثم قفل راجعا إلى منطقة الزاب واستجمع جيشا من قبائل الدّواودة، وحرر تلمسان من سيطرة المرينيين، وبذلك أحيا مجد الدولة الز نية من جديد سنة 760 ه. كان لأبي حمو آ ر فكرية ينم عن سعة اطلاعه وحنكته، فقد ازدهرت الدولة الز نية في عهده في جميع المجالات، إذ تمكن من تكوين جيش قوي يحمي تلمسان، كما أقام علاقات مع بلاد الأندلس، وساند ملوك الطوائف فيها لأموال والغذاء، ومما اشتهر به أن بلاطه كان قبلة للشعراء والمؤرخين والعلماء ومن أهمهم يحي بن خلدون أخو عبد الرحمان. وكانت وفاته على يد ابنه أبي شفين الذي ر عليه فقتله بعد صراعات دامية، وكان ذلك سنة 790 ه.

(52) ينظر: واسطة السلوك في سياسة الملوك (ص 87).

1818م.

وللعالم الجزائري والدبلوماسي البارع حمدان بن عثمان خوجة المتوفى سنة 1836م ستانبول كتاب حول الأوبئة سماه (إتحاف المنصفين والأد ء بمباحث الاحتزاز عن الو ء) يذكر فيه تجربته مع الو ء في الجزائر وسبل الوقاية منه ومنها الحجر الصحي أو ما كان معروفا سم (كرنتينه) فيقول رحمه : (... عند وقوع الو ء يلتزمون عدم الاختلاط لناس، ويلزمون د رهم، فلا يصاب لهم أحد ذن ، وتكرر ذلك واطردت السلامة، وأ العبد الحقير حضرت وقوع الو ء لجزائر نحو عشرين سنة كما سبق والتزمت التحرز قل مما يحتاط الفرنج، فكنت أصلي الجمعة وأحضر جنائز أصحابي من غير أن أقتحم مجتمع الناس، ومن غير أن أمس أحداً، ولا قماشاً، ثم ارجع، فأتبخر، فسلمني أ وجميع من معي، وبمثل هذا تثبت التجربة ...)[53].

إلا أن هذا الاحتزاز والوقاية وعدم الاختلاط لناس عند حلول الو ء لم يكن معمولا به عند أكثر السكان الجزائريين، ولا عند حكامهم، بحجة أنها إجراءات الدول الكافرة، إضافة إلى أنها من عقائد الكفار، وتدنيس لعقيدة المسلمين، وأنه يتعارض مع الإيمان لقضاء والقدر حسب زعمهم.

ففند حمدان بن عثمان خوجة حججهم تلك لأدلة والبرهان، وذكر أنه ألّف رسالته – السابقة الذكر– لبيان خطأ المسلمين وإهمالهم في صيانة أرواحهم، وذم تعصبهم، فيقول: (ولما رأيت الخلل الداخل على المسلمين همال مثل هذه القواعد وإنكارها، والتزام التقشف والتعصب في عدم دفع المضرة حتى شدد البعض النكير على الذين يستحسنونها –يعني الحجر الصحي– وعدوا ما يطرأ لهم من المضرة قربة يحتسبونها ... فكنت رأيت لبلاد الفرنجية انتظام أمورهم واعتنائهم مور السياسة في صيانة جمهورهم خصوصا حيث التزموا لدفع الو ء عنهم ما جربوه من الاحتماء والاحتزاز لاستقراء في عدم إدخال الداخل إليهم إلا بعد تحقق البراءة أو الاستبراء، وجعلوا بذلك حكاما في أماكن حصينة مع غاية الاحتياط، وسموا ذلك كرنتينه، فأصابوا في بعض ما فعلوا وأخطأوا في إسنادهم التأثير للأسباب حتى كان موجبا لنفرة المسلمين عن كل ما فعلوه عوضا عن نفرتهم عن خصوص ما اعتقدوه في هذا الباب، وأيم إنه لغلط، والمبالغة في التعصب فقط إذ لا تستباح نفوس بني آدم مع التمكن من صيانتهم بمجرد سبق الكفار لهذا الاحتياط الواجب، وهو لا يتعلق بد نتهم)[54].

وهذا الاحتياط الغربي في نظام الحجر الصحي أو فرض حزام صحي على المناطق الموبوءة، وتفتيش السفن التجارية الآتية إلى الجزائر، وضرورة حيازة على شهادة صحية تثبت عدم وجود المرض، وإلزام جميع السفن القادمة إليها لحجر داخل سفنهم في مدة ما بين عشرة إلى عشرين يوما، سواء لأطقم السفن وعلى السلع والبضائع أيضا قبل النزول للميناء والاحتكاك لغير.

لم يكن معمولا به عند أغلب الحكام العثمانيين في الجزائر، بل تعدى الأمر إلى أن أمر بعض الدا ت بتفتيش تلك السفن وهي على البحر، مع تنبيههم لها حاملة للو ء كما وقع للداي علي خوجة في و ء سنة 1817م رغم تنبيه القنصل الأمريكي لجزائر يومئذ وليام شالر.

أو تمثل إهمالهم في مراقبة تلك المراكز الوقائية التي فرض عليها الحجر الصحي كما في حدث في و ء 1789م لما فر العديد من البحارة الأتراك فاتصلوا لسكان مما أدى إلى انتشار الو ء بين السكان في جميع مناطق الجزائر، ومكث في الجزائر أكثر من عشر سنوات.

(53) ينظر: إتحاف المنصفين والأد ء بمباحث الاحتزاز عن الو ء (ص 33).

(54) ينظر: حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأد ء بمباحث الاحتزاز عن الو ء (ص 3–4).

سادسا- الهبة الشعبية والتضامن الاجتماعي أ م وقوع الو ء والطاعون في الجزائر: يقول المؤرخ العربي زبيري: (عندما أصابت الجزائر مجاعة التي أضرت بسكان بلد قسنطينة، ودام الحال ثلاث سنوات متوالية الأمر الذي حتم على السكان فتح مطامرهم وتوزيع ما كانوا قد خزنوه من حبوب على إخوانهم الضعفاء).

كما يذكر الدكتور أرزقي شويتام أن سكان مدينة الجزائر العاصمة كانوا يشيدون موالهم الخاصة مرافق عمومية كتخصيص قاعة خارج ب الوادي يلجأ إليها الفقراء وعابري السبيل لقضاء الليل، مع توفير الغداء والعشاء لهم.

سابعا- استعمال الطب الحديث في العهد العثماني لجزائر كان قليلا جدا، وهذا ما نراه من خلال كتا ت المؤرخين والرحالة الغربيين فقد أجمعوا أن الجزائر كانت تفتقر إلى المستشفيات والمراكز الصحية إلا مصحة زنقة الهواء، وملجأ الأمراض العقلية لجزائر العاصمة، خلافا على ما عليه البلدان المجاورة تونس والمغرب ومصر وحتى استانبول (دار الخلافة).

وكذا لم تتوفر في الجزائر على الصيدليات إلا على صيدلة واحدة في العاصمة حسب ما ذكره حمدان خوجة[55].

وأما الأطباء الجزائريون المختصون في الطب الحديث فكانوا قلة، أحصاهم وترجم لهم الدكتور مصطفى خياطي في كتابه (الطب والأطباء في الجزائر العثمانية) فبلغوا خمسا وعشرين طبيباً[56].

من أشهرهم: الطبيب والصيدلي الجزائري عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش المتوفى سنة 1785م، ومحمد بن سليمان بن الصايم التلمساني المتوفى بعد سنة 1658م، ومحمد بن أحمد الشريف الحسني المتوفى بعد سنة 1737م، وأحمد بن قاسم بن ساسي البوني مات سنة 1727م وغيرهم[57].

خلافا للأوربيين المتواجدين في الجزائر، فقد كانت لهم مستشفيات خاصة بهم كالمارستان العام الذي أنشأه القسيس الإسباني سيبستيان دو بور سنة 1551م، والذي يعد أول مستشفى مسيحي لجزائر، ومستشفى لازارست الذي خصص له الملك الفرنسي لويس السادس عشر بعض الإعا ت المالية، والمستشفى الفرنسي في مدينة القالة شرق الجزائر التي تشرف عليه الوكالة التجارية الفرنسية، وكان للإسبان والإنكليز والدانمارك مستشفيات خاصة بهم في الجزائر على نفقة دولهم أو حتى كنائسهم[58].

وأفادت بعض المصادر الفرنسية أن من جملة الأطباء الفرنسيين الذين أقاموا في الجزائر في هذه الفترة الطبيب مارتينانغو ذو الأصول الإيطالية، والطبيب أودراس، والطبيب أسنتي، والطبيب ميارديي، والجراح روبرت هيروسم دوريول وغيرهم[59].

بل بعض الأطباء الفرنسيين دخل في الإسلام، وصار يرتدي اللباس العربي، وفتح عيادة طبية كالطبيب الفرنسي سليمان في فترة ما بين 1641م-1647م[60].

وأما لنسبة إلى غالب دا ت العهد العثماني و تهم وحاشيتهم فكانوا مهتمين نفسهم وحاشيتهم كان لهم أطباء أجانب أو ما يختارونهم عادة من الأسرى الأوروبيين من كانت له دراية لطب والجراحة، فقد ذكر الرحالة والطبيب الألماني

---

(55) ينظر: حمدان خوجة، إتحاف المنصفين ... (ص 136).

(56) ينظر: الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، مصطفى خياطي، (ص 117-128).

(57) ينظر: Show, Voyage Dans La Regence D' alger, p 81. والطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، بوحجرة عثمان، (ص 25- 28).

(58) ينظر: صر الدين سعيدوني، ....، (ص 127).

(59) ينظر: ريخ الطب في الجزائر، مجاهد يمينة (ص 59). الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، بوحجرة عثمان (ص 30-31).

(60) ينظر: الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، بوحجرة عثمان (ص 31).

ج. أو. هابنسترايت في رحلته إلى المغرب العربي سنة 1732م أنه كان يعالج كبار الشخصيات وخاصة الداي محمد كور عبدي وابنه آغا العرب[61].

وكان الطبيب الهولندي صانسون في خدمة ي قسنطينة حسين بوكمية في حدود سنة 1713م، والطبيب الإيطالي سكال غاميزو كان في خدمة صالح ي قسنطينة سنة 1771م، كما استقدم الداي علي خوجة طبيبا إسبانيا خوان فر ندير دي لاس هراس سنة 1817م[62].

وقد صرّح شونبيرغ أن الداي حسين –آخر الدا ت– كان يرسل أولاده وأسرته إلى طبيب انجليزي يدعى يوهن لتطعيمهم، ويكافئه لمال.

كما نجد أيضا أن سيمون بفايفر –والذي كان أسيرا عند أحد وزراء الداي حسين وهو الخز جي أفندي (وزير المالية) ما بين سنوات 1825م إلى 1830م– ثم أصبح طبيبه الخاص[63].

فظاهرة لجوء حكام الأتراك والأهالي الأثر ء إلى خدمات الأطباء الأجانب نتيجة عدم كفاءة الأطباء المحليين، حسب رأي أبو القاسم سعد .

إلا أن بعض الدارسين يرى أن حكام الجزائر العثمانية كانت لهم بعض المجهودات في الجانب الصحي، فحسن آغا بن خير الدين بربروسا أمر ببناء مصحة أو مستشفى صغير للانكشارية والشيوخ والعجزة سنة 1544م، وقد أوكلت إلى الباش جراح الوقوف على حاجيات الجنود الصحية والتصدي لأي مرض، وأن السلطة العثمانية كانت تشجع الزوا التي تتكفل لصحة العمومية وتدفع لها مصاريف المرضى من الأوقاف، وتزويد المدن لماء وصيانة القنوات وتطهيرها وإنشاء قنوات صرف المياه القذرة، واهتمامهم بتنظيف المدينة والتي كان لها دور هام في الوقاية، وبناء الحمامات، إضافة إلى إعطاء الحرية لمهنة الطب بدون رقابة وبكل حرية وبدون دفع رسوم، هذا كله في إطار السياسة الصحية للدولة[64].

مناً– العلاجات الطبيعية المحلية التي كان يستخدمها الجزائريون في العهد العثماني وقبله لعلاج الأوبئة والطواعين: هو ستعمال التداوي التقليدي (الأعشاب) كاستفادة من نبا ت عديدة منتشرة في منطقة القبائل كـ: الفليو، والبصل، والنعناع، والسفرجل، والعرعار، والكمون وغيرها، وبعضها تستخدم كمرهم وكمادة كما كان يفعل بعصارة شجرة الصنوبر [65].

ويؤيد ذلك ما ذكره أبو الخير الإشبيلي أن أجود النبا ت الطبية كانت تتواجد في بجاية و هرت وتلمسان، والتي يجلب الكثير منها إلى الأندلس[66].

وأما طريقة استعمال تلك الأعشاب الطبية والر حين بتعطير الثياب، والقضاء على الهواء المعدي الموجود بها، فكانت

(61) ينظر: ج. أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس، ترجمة وتقديم: صر الدين سعيدوني (ص 23–24). الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، بوحجرة عثمان (ص 36).

(62) ينظر: الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، بوحجرة عثمان (ص 34–35، 38).

(63) ينظر: أ. ف. شونبيرغ، الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال، ترجمة: أبو العيد دودو، (ص 51–52). سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة ريخية عن الجزائر، ترجمة: أبو العيد دودو، (ص 25– 26). نور الدين حاروش، إدارة المستشفيات العمومية الجزائرية، (ص 95). ريخ الطب في الجزائر، (ص 35).

(64) ينظر: الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، بوحجرة عثمان (ص 74– 82).

(65) انظر: الطب في الجزائر خلال العهد العثماني (ص 22)، الأمراض والأوبئة في الجزائر في أواخر العهد العثماني (ص 50).

(66) انظر: عمدة الطبيب في معرفة النبات 699/2.

بعد تنظيف البيوت من القاذورات، وكنسه، ثم رشه لخل وماء الورد، ويبخر لصندل والعرعار وما تقدم ذكره وسط المنازل، ثم يعلق الياقوت والنارنج والبصل والنعناع والتفاح[67].

كما كانوا يلتجؤون إلى الأماكن العالية والمرتفعة كالجبال والسهول حيث الهواء النقي ففي و ء سنة 1816م والذي دام أكثر من أربع سنوات وعم جميع مناطق البلاد، جعل سكان بجاية وجيجل يفرون إلى الجبال والأماكن العالية.

كما لا ننسى استخدامهم للرقية وقراءة القرآن الكريم والأذكار والأدعية كوسيلة لمعالجة الأوبئة والأمراض، فقد بعث الباي حسن بن موسى إلى الداي حسين –آخر الدا ت– راقياً كان قد أمره ببعثه إليه رجاء بركته حسب زعمهم، ونرى بعضهم انتهج سبيلا آخرا وهو ز رة قبور المرابطين والأولياء الصالحين ويعتقدون أن قبورهم مجلبة للشفاء والعلاج – وهذا من الشرك والجهل في ذلك الوقت.

سعاً– ثيرات الو ء والطاعون النفسية على الحكومات والأشخاص:

من الأمور التي تتكرر في المصادر التاريخية إ ن كل حديث عن الأوبئة والمجاعات التي حدثت في الجزائر في العهد العثماني الإشارة إلى ثيراتها الكبيرة على الحكومات والمواطنين معا، لأنه يعقبها مباشرة قحط شديد، وارتفاع في أسعار المواد الغذائية بسبب ندرة المواد والسلع في الأسواق، ونفاد الأقوات، أو احتكار من طرف التجار، فيكون سببا في شلل الحياة الاقتصادية وضعف العملة وانخفاض قيمتها، وانتشار ظاهرة الدين والسلف والرهن التي يلجأ إليها الناس، مع ظهور اللصوصية وكثرة المتسولين.

فنجد بعد الو ء أو المجاعة مباشرة –حسب المصادر التاريخية– وقوع التمردات والثورات سواء من الجيش الانكشاري كما في عهد الداي عمر شا، وأدّت إلى إعدامه، أو ثورات شعبية في شتى مناطق البلاد يضطر خلالها الداي والحاكم إلى اضطهادها وقمعها بقوة السلاح كما في عهد الداي محمد بن بكير.

إضافة إلى العامل النفسي وهو قلق الناس وهلعهم، فيدفعهم ذلك إلى تخزين المواد الغذائية واحتكارها لمواجهة الطوارئ، فيكون عاملا آخر من صنع الإرادة البشرية، وعلى هذا يذكر الدكتور الحسين بولقطيب في كتابه (جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين) في أثناء كلامه على طاعون سنة 571هـ/ 1175م والذي أصاب المغرب العربي والأندلس واستمر لمدة سنة كاملة، كان يهلك يوميا ما بين 100 إلى 190 شخصا. فيقول رحمه : (... وكان له – يعني هذا الو ء– ثيراته النفسية بلغت حدا كان الناس يموتون فيه من غير مرض، حتى إن الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه وأهله ...)[68].

ولهذا كانت مقولة الطبيب ابن سينا المشهورة: " الوهم نصف الداء، والاطمئنان نصف الدواء، والصبر أول خطوات الشفاء" .

ومن جملة الأسباب والآ ر النفسية والاجتماعية التي تعقب الأوبئة والطواعين حدوث المجاعات وسببها قلة اهتمام الناس دخار وتخزين الطعام، يقول المؤرخ ابن خلدون رحمه : (الناس واثقون في أقواتهم لاحتكار، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات، فغلا الزرع، وعجز عنه أولو الخصاصة فهلكوا، وكان بعض السنوات الاحتكار مفقوداً فشمل الناس الجوع) [69].

(67) انظر: المجاعات والأوبئة في الجزائر في المغرب الأوسط، مزدور سمية، (ص 172).

(68) ينظر: جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين (ص 55).

(69) ينظر: مقدمة ابن خلدون (ص 282).

الخاتمة:

لقد تبينا خلال هذه الدراسة كيف أن الأوبئة ظلت مصاحبة للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني في فترة الدا ت، بل كانت أحيا تمتد لعدة سنوات متتالية، تشمل جميع المناطق أو أغلبها.

على أن ما تجب الإشارة إليه هو أن أغلب المصادر والمراجع التاريخية تهتم لمناطق الشمالية والمناطق الكبرى كبايلك الشرق (قسنطينة)، و يلك الغرب (وهران) دون البوادي والمناطق الصحراوية الجنوبية، وهذه ثغرة مهمة في كتب التاريخ لا تتطرق إليه غالبا.

كما يجدر التنبيه إلى دور الحكومة في التصدي والتخفيف من ظاهرة الأوبئة غلاق الموانئ البحرية، وإلزام الناس لحجر الصحي حفاظا على أنفسهم من انتقال العدوى، مع توفير الغذاء والحاجيات الأساسية كالقمح والشعير وغيرهما، ومحاربة ظاهرة الاحتكار كان يختلف سلبا وإيجا حسب نشاط الدا ت وقوتهم وضعفهم.

ورأينا الآ ر السلبية للأوبئة والطواعين في كثرة الموتى ومصاحبة الأوبئة الأخرى كانتشار الجراد والجوع، وتمرد القبائل وحتى الجيش الانكشاري على الدا ت مما يوجب قتلهم واغتيالهم.

References:

Hamdan bin ‘Uthman Khawbah, *Ithaf al-Musannifin wa al-Adba’ bi Mabahith al-Ihtiraz*, England: University of Britain, 1892.

Nur al-Din Hawarsh, Idarah al-Mustashfiyat al-‘Umumiyyah al-Jaza’ir, Algeria: Sharikah Dar Katamah li al-Nashr, 2008.

Abu al-Qasim Sa`d Allah, *Abhath wa Ara’ fi Tarikh al-Jaza’ir*, Algeria: Dar al-Basa’ir li al-Nashr, 2007.

Altar ‘Aziz Samah, *Al-Atrak al-Uthmaniyyun fi Shama’il Afriqiyya*, translated by Mahmud ‘Ali ‘Amir, Beirut: Dar al-Nahdah al-‘Arabiyyah, 1989.

Stephen, Jimmy Wilson, *Al-Usari al-Amrikiyya fi al-Jaza’ir*, translated by: Ali Tablit, Algeria: Thala Publications, 2008.

Hamoudi Hoda dan Mesbahi Hizia, Al-Amrad wa al-Awba’iyyah fi al-Jaza’ir Awakhir al-‘Ahd al-‘Uthmanni, Risalah ‘Ilmiyyah Amaliyyah Muqaddimah li Nail al-Majistir fi Tarikh al-Hadith, Jami`ah al-Bouira, 2018.

Mustafa Khayati, *al-Awba’iyyah wa al-Maja`at fi al-Jaza’ir*, (translated by) Hadriya Yousfi, ANEP Publications, 2013.

Mubarak bin Muhammad al-Mili al-Hilali. *Tarikh al-Jaza’ir fi al-Taqdim wa al-Hadith* Algeria: National Book Foundation, 1989.

Abu Al-Qasim Saad Allah, Tarikh al-Jaza’ir al-Thaqafi, Algeria: Al-Basaer Publishing House, 2007.

Mujahid Yamina, Tarikh al-Tibb fi al-Jaza’ir fi Zill al-Isti`mar al-Farance, Thesis PhD, University of Oran, Algeria, 2018.

Logie de Tassi, *Tarikh Mamlakah al-Jaza’ir*, (translated by): Lakhdar Boutaba, Algeria: Dar Kawkab Al-Ulum, 2023

Ibn Khatima Ahmad bin Ali Al-Andalusi, *Tahsil Gharad al-Qasid fi Tafsil al-Marid al-Wafid*, (ed.). Muhammad Hassan, Tunisia: Tunisian Academy of Sciences, Literature and Arts, Bayt Al-Hikma, 2013.

Abdul Rahman Ibn Khaldun, *Tarikh bi Ibn Khadun wa Rihlatih Gharban wa Sharqan*, Beirut: Lebanese Book House for Printing, 1979.
Abdul Malik bin Zuhr Al-Andalusi, *al-Taysir wa al-Mudawah wa al-Tadbir*, (ed.), Ahmed Farid Al-Mazidi, Beirut: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1st edition, 2007.
Le Maghreb avant la prise d'alger 1790-1830. L. Valensi
Jean Marchika .La Peste en Afrique Septentrionale
Voyage Dans La Regence D' alger .Show

الجزائر خلال القرن الثامن عشر، جون ميشال فونتير دو رادي، ترجمة: لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم، الجزائر، سنة 2023م.

جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، ليف: الحسين بولقطيب. منشورات الزمن، الر ط، المغرب، سنة 2002م.

رحلة إلى إ لة الجزائر، جون أندري بيسو ل، ترجمة: لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم، الجزائر، سنة 2023م.

دراسات وو ئق في ريخ الجزائر العسكري والسياسي، أرزقي شويتام، دار الكتاب العربي، الجزائر، سنة 2010

دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، ليف: محمد بن يوسف الز ني. تحقيق: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر، ط1، سنة 2013م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي المقريزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمة، بيروت، ط 1، سنة 1418هـ/1997م.

الصحاح ج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، سنة 1407هـ/1987م.

الطب في الجزائر خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي. إعداد الطالبتين: يونسي فهيمة، وعتمان سلوى، رسالة علمية لنيل الماستر في التاريخ، جامعة البويرة، الجزائر، سنة 2016م.

الطب والأطباء في الجزائر العثمانية، مصطفى خياطي، منشورات ANEP.

الصحة والسكان أثناء العهد العثماني، فلة موساوي القشاعي، رسالة علمية (دكتوراه)، جامعة الجزائر 2، سنة 2005م.

الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، بوحجرة عثمان، رسالة علمية (ماجستير)، جامعة وهران، الجزائر، سنة 2015م.

عمدة الطبيب في معرفة النبات، أبو الخير الإشبيلي، تحقيق: محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، سنة 1995م.

كتاب الأغذية (النشاط والقوة والشفاء في الأغذية)، عبد الملك بن زهر الأندلسي، تعليق: محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة 1998 م.

المتوسط والعالم المتوسطي، فر ن بروديل، ترجمة: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، بيروت، سنة 1991م، ط1.

المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط 588هـ-927هـ/1192م-1520م. إعداد: مزدور سمية، رسالة علمية لنيل الدكتوراه، جامعة قسنطينة، الجزائر، سنة 2009م.

مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب الأشراف. تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1974م.

مذكرات أو لمحة ريخية عن الجزائر، ليف: سيمون بفايفر، ترجمة: أبو العيد دودو، الشكة الوطنية للنشر، الجزائر، سنة 1974م.

مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824م. ترجمة: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1982م.

مقنعة السائل عن المرض الهائل لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: محمد حسن، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، ط 1، سنة 2013 م.

واسطة السلوك في سياسة الملوك، أبو حمو موسى الز ني، طبع بمطبعة الدولة التونسية، سنة 1279هـ. صورة من مطبوعات جامعة أكسفورد سنة 1880م.

وصف إفريقيا، الحسن بن محمد الوزان الز ني الفاسي، ترجمة: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، سنة 1983م.